

الموالد بدعة خطيرة على الدين والاخلاق معا

تفضل صديق لي - ممن يشتغلون بتدريس الفلسفة - فدعاني الى زيارة الحى الزينبي الذى يسكن فيه . وذلك لمناسبة الاحتفال السنوي المعتاد ، الذى يقام فى ذلك الحى ، احياء لذكرى السيدة زينب بنت الامام على رضى الله عنهما .

كانت حجة صديقي فى دعوته اياي ، فلسفية أكثر منها أخلاقية كما ظننت أولا . فهو يرى أن الصحفي الذى لا يخطئ بالجمهور من العامة ، ويندس بين مختلف طوائفه ليتعرف الى ميولهم ، ويتوافر على دراسة طباعهم - وكثيرا ما تبدو واضحة جليلة فى مثل هذا الحقل - مثل هذا الصحفي لا يستطيع تأدية رسالته - التى حملها إياه صاحبة الجلالة - الى جمهرة القراء على الوجه الصحيح .

ولعل صاحبي هذا محق فى أكثر نواحي قوله ، ان لم يكن محقافى نواحيه كلها ، فالحق أن جمهرة القراء - والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه - تأبى الا ان تلى إرادتها على الكاتب ، والا ان يرسم لها برشته صورة ما يحدث فى تلك المحافل العامة ، رضى أم لم يرض . وأنت اذا لم تنبسط مع هؤلاء فى القول ، فسيدعونك « وفلسفتك » كما يفهم البعض ، أو يسخررون من « جودك » كما يتوهم البعض ، أو يسدون عليك منافذ « تجديدك » كما يفقه البعض .

إزاء كل هذه العوامل ، مجمعة الى بعضها البعض ، رأيت لزاما على أن أدعى دعوة الصديق ، وأن أقص على القارئ بعض مشاهدت فى غير رفق ولا لين ، وان كنت أعرف أن بعضهم سينقم على ، وسيرى أنى أقوض بنيانهم ، وهم فيه خثيثون .

تجولت فى ساحة المولد أولا لأرى بعيني رأسي ، مايقع فيها من مهازل شيطانية ، يصبغها أهلها بصبغة الدين ، بينا الدين يرى منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وأسمع بأذنى تلك الحرافات والخزعبلات التى يلصقها أصحابها بالكرامة حيناً ، وبالكشف حيناً آخر ، مما تأباه طبيعة الشرع الحنيف ، الذى كان من أقوى دعائمه ، هدم تلك الا نقاد البالية ، وإزالة هاتيك المعتقدات الباطلة .

والآن فلا عظيمك أولا فكرة موجهة ، تمثل لك أصدق تمثيل أصل هذه البدعة ، وأثرها فى الدين والاخلاق معا ، اتحكم بصحة ما سأنتهى بك إليه فى هذا الحديث ، وهوان الموالد شر مستطير يجب إزالته ، وإنم كبير تخم إرادته ، وإلا فلك بعد ذلك رأيك ولى وحدى رأي .

الموالد بدعة فارسية

وبعد ، فلتعلم يارعاك الله ان الموالد بدعة مستحدثة منكرة ، لا أساس لها من الدين مطلقا ، بل ليس لها حظ منة في قليل ولا كثير ، وإنما هي بدعة من بدع أولئك الفرس الذين تستروا وراء العلويين تارة ، واحتتموا بالفاطميين تارة أخرى ، كما ينفذوا ما ربههم ، ويحققوا هويهم . وما هذه الهوية أو تلك المآرب سوى هدم الاسلام ، لتقوم دولتهم من جديد على أنقاضه ، تلك الدولة التي دحرها الاسلام ، وخلأها هشيما تروه الرياح .

وقد رسموا لذلك خططا عدة ، لكن جلتها إن لم يكن كلها فشل ، لأنها لم تكن مستندة إلى سلاح الدين ، وسلاح الدين كما تعلم سلاح ماض لا يفل ، فابتدأوا بقتل الخلفاء أولا ، زعما منهم أن الخلافة محط آمال المسلمين ، فإذا ما انقرط عقدها بقتل الخليفة يصبح الاسلام وكأن لم يكن شيئا مذكورا ، فلما لم يفلحوا ألجأوا الجيوش على المسلمين وبثوا الفتى الخ مما هو معروف مشهور . . . وأخيرا لم يجد أولئك الفرس أمامهم سوى سلاح الدين يشهرونه في وجوه أهله ، وذلك بالانتصار لفريق من المسلمين دون فريق ، والدعوة لفريق بالخلافة دون فريق ، وتأويل القرآن بما لا يحتمل اللفظ ، وتحريف الاحاديث ووضعها . يؤيد لنا ذلك ما ذكره صاحب كتاب (المواقف) حيث قال : « ان طائفة من الجيوش راموا عندشوكة الاسلام تأويل الشرائع على وجوه تعود الى قواعد أسلافهم ، وذلك أنهم اجتمعوا فتذاكروا ما كان عليه أسلافهم من الملك ، وقالوا : لا سبيل لنا الى دفع المسلمين بالسيف لغلبتهم واستيلائهم على الممالك ، لكننا نختار عليهم بتأويل شرائعهم الى ما يعود الى قواعدنا ، ونستدرج الضعفاء منهم ، فان ذلك يوجب اختلافهم واضطراب كلمتهم »

يمثل هذه السبل التي ذكرها صاحب المواقف ساروا ، وقد ساعد على تحقيق تلك الآمال قيام دولتي العلويين والفاطميين بالأمر ، وأنت تعلم أن العلويين والفاطميين أولاد فاطمة الزهراء زوج على رضى الله عنه ، وتعلم قيمة دعوى تنسب الى هذا البيت ولو كانت زورا ، وتعلم أن هاتين الدولتين كانتا - بدون علمهما - آدائين مستخرتين مدفوعتين بقوي الفرس الخفية الذين استغلواهما لقضاء اللبانات التي أسلفنا .

أفهمت إذن لماذا قامت فكرة الموالد وما شابهها ؟ دعنا من هذا الآن وتعال معي لترى تلك المشاهد التي تقام في تلك الموالد ، فيستحق لك الأمر ، وينجلي الصبح لذى عينين وتعرف إن كانت من الدين ، أو ليست من الدين في قليل ولا كثير ؟

مشاهد الموالد

أول ما يصادفك في الموالد حلقات الذكر التي يجتمع فيها الخابل بالنايل ، فتكون خليطاً من الجنسين - الخشن واللطيف - وهم ما بين أمرد وحسنا ، وأشيب وشمطاء ، هذا يغازل تلك ، وهذه تحاصر ذاك ، كأنما نحن في مرقص نشهده فيه حفلة من حفلات الرقص الحديث Modern Dance . وترى شيخ الحلقة يسارق الجميع النظرات ، وهم كما علمت ما بين مرد ونساء ، ثم ينظم لهم طريقة الذكر ممزوجاً بدق الطبول ، وضرب الدفوف ، وقرع الطاسات ، ورقص الصاجات ، وعزف الناي ، بينما يقوم فيهم منشد يندسهم بأقبح الأناشيد ، ويغنيهم بساقط الاغاني ، مما يثير فيهم شهواتهم البهيمية ، ويزيد نارهم تأججاً فيكثر الشهيق والنهيق . وأقسم لك إنني لأخجل لو ذكرت لك شيئاً مما يندسهم ذلك المنشد الغرماً فوناً ، ولكن ماحيتي وناقل الكفر ليس بكافر ، لكني أرجو أن تعفيني من هذا . ويكفي ان تعلم أنها أغاني قبيحة جداً ، وانك اذا ماسمعتها واستعجبتهما لديهم - ولا شك انك مستعجبهما - قالوا لك « لكم المغنى ولنا المعنى » . فاذا مالفت نظرهم إلى سوء طريقة ذكرهم وبعدها عن روح الشرع ، أجابك شيخهم قائلاً : « لكم الظاهر ولنا الباطن » فاذا ما اشتد نقدك لهم ولقت نظر منشدهم إلى الأثر السيء الذي تتركه أناشيده في النفوس - وخشى أن ترك انت لا أثر أناشيده - تحول إلى بعض أغانيهم التي يعتقدها شرعية ، لا هزل فيها ولا بحون ، وهي علم الله أشد كفرًا ونفاقاً من الأولى ، أستغفر الله ، إن الاغاني الأولى لا كفر فيها مطلقاً ، بل مكروهة شرعاً ، أما هذه الجدية في عرفهم فهي الكفر بعينه ، والا فمارأيك في مثل قولهم :

عبد القادر يا جيلاني يا ذا الفضل والاحسان
صرت في خطب شديد من احسانك لا تنساني

أليس هذا هو الكفر بعينه ؟ أو لست تعتقد أن مثل هذه الصيغ لو سمعها مشركو قريش لكفروا قائلين ؟ أولست تعلم أن أبلغ صيغة من صيغ التلبية عند مشركي قريش كانت « لبيك اللهم لبيك : لا شريك لك غير شريك واحد تملكه وما ملك » ؟ هؤلاء الذين يتخذون دين الله لهوا ولعباً ، ويدكرون اسمه الأعظم مشوباً بتلك الأناشيد - التي أقل ما فيها الاطراء الذي نهى عنه رسول الله بقوله « لا تطروني كما أطرت اليهود والنصارى أنبياءهم » - أشد من عناهم الله بقوله الكريم « وما كانت صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية » أي صغيراً وتصفيقاً . وهؤلاء جعلوا عبادته تصفيقاً وشهيقاً ، وخلاعة ونعيقاً .

ومارأيك فيمن يقولون : إن السيد عبد القادر الجيلاني قال : أعطيت سجلاً مد البصر ،

فيه أسماء أصحابي ومریدی إلى يوم القيامة وقيل لی : لقد وهبوا لك يا عبد القادر - ألبسوا مجانين مخاريق ؟ وإلا فأی عقل يتصور هذا الهذيان ؟ وأی مؤمن عاقل يحتمل تبعه روايته وتصديقه ؟ وأن إذن قول سيد المرسلین لابنته فاطمة الزهراء « يا فاطمة يا بنت محمد : اعلمي ، لا أغني عنك من الله شيئا » ؟ وأین قول الله عز وجل فی محكم آیه « ونادی نوح ربه فقال رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت أحکم الحاكمین ، قال یا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غیر صالح » ؟ وهل الذین اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله - لقبوا احبارهم أو استغاثوا برهبانهم ، وقالوا فيهم اعظم مما يقوله هؤلاء فی بعض شیوخهم مثل : « يا محبي الرحم ، يا برأى النسم ، يا ضياء السموات والارض » ؟

هؤلاء قوم شوشوا الدين وضيعوا معالمه ، لقضاء ما رب ذاتية توسلوا إليها بتضليل عقول الجهلاء ، واختلاب قلوب الضعفاء : كالنساء وذوى الأهواء ، بهوین أمر التعبد وجعله لهواً ولعباً ، لأنهما أهون على النفس والطبع من القيام بتكاليف الشرع .

أثر الموالد فی الدين والاخلاق

لقد كان من أثر هذا كله أن اخلت الدين أوکاد ، وأصبح أغلب المسلمین لا يعرف من الدين إلا اسمه ، ولا يفقه من العلم إلا رسمه ، ولا من العبادة إلا رقصاً ولهواً وقصفاً ، هذا أثرها فی الدين وهو أعز ما يملك الانسان فی الدنيا والآخرة ، لكن هناك أثر لا يقل عن الاول خطورة ، ذلك أثرها فی الأخلاق ، وما أظنك تجهل ذلك الاثر السيئ الذي يترتب على اجتماع بعض النساء ضعيفات القلوب بأولئك الشياطين ، وهم ما بين : لص وزان ، ومجرم وفاسق ، ومدمن وقاتل ، وغير هؤلاء من جرائم الأخلاق وملفوظی المجتمع . لتترك هذا أیضاً ، وتعال معی لتدخل المسجد نفسه الذي أقيم للعبادة وأقصده عبادة الله لاعیادة أولئك الجهلاء لشیوخهم . فانك ستري عجبا ، أجل : ستري المسجد فی لغط وهرج دائمین طيلة المولد حتی لينقلب من مسجد أعد للعبادة الي حانة نارة ، ومقهی نارة أخرى ، ومطعم أحيط بأوسخ الخلفات من الاطعمة الملقاة على الحصر حینا ، ونزلا للنوم حینا آخر ، ووكرا لارتكاب الموبقات : من سرقة الى خطف ، ومن شرب مسكر الى تعاطی مخدر ، ومن زنى الى لواط وغير هذا مما سجلته (محاضر البولیس) .

دعنا من هذا أیضاً ، وتعال معی لترى ما يحصل فی البلاد استعدادا لهذه الموالد . فلو أنك ذهبت الى قرية من القرى ، لوجدت شیخاً أو شیخین أو أكثر من أولئك الشياطين يتنازعونها الحکم والسلطان ، ويتقاضون أهلها الجعل الذى یسمونه (العادة) والنلاح كما تعلمه

ساذج بطبعه، فأولى به أن يكون سهل القيادة، سريع الاعتقاد، لذلك تراه يؤدي (عادة الشيخ) بفرح وسرور، بل لو عاقه عن تأديتها عائق ما، اقترض من الغير ولو بالربا الفاحش، أو باع محصوله ولو بالخسران، اعتقاداً منه أن التأخر عن تأديتها، يجر عليه الكوارث طيلة العام المقبل، وأقسم لو أن هذا الاعتقاد الجازم، وجد من يستخدمه في الصالح العام أعاد على الأمة بخير النتائج، ولكانت الموالد نفسها تجر الخير والبركات على الأمة، رغمًا عن كونها بدعة منكرة، لكننا نجد الأمر على النقيض من ذلك بكل أسف حيث نرى نفوس أولئك المريدين ملأى بالخيالات الباطلة والاهوام الساقطة التي تجعلهم يخشون الأولياء أكثر مما يخشون خالق الأولياء، وأنت تعلم أن رسوخ هذه الاهوام في الأذهان، هو أكثر ما يبعد أهلها عن الدين، وأشد ما يعول بعمل على هدم الفضيلة والاخلاق. وليت الأمر يقف عن هذا الحد، بل إن أولئك الأبالسة يجندون أهل القرية تجنيداً، ويسرونهم كالقافلة قاصدة مكان المولود في أشباه المواقب، حاملة أعلامها وطبوعها، رافعة صوتها ورسومها، جاهرة بالنهيق والشهيق، مما تجمعه النفس الشريرة، وتأباه طبيعة الدين الخفيف، وما يعده علينا مبشرو الاجانب في سجل السيئات، زاعمين أن ذلك من أسس ديننا البريء. أرايت اذن كيف ينهار بنيان أمة تريد عزة وكرامة؟ ويمثل بدين هو تاج الاديان؟

أصل تقاليد أصحاب الطرق.

دعنا من هذا أيضاً، وتعال معي لتبحث الاصل الذي أخذ منه القوم رسومهم وتقاليدهم. وأنا أأزعم لك أنهم أخذوا تأويل القرآن وتحريفه عن موضعه، من التلمود وتفسير التوراة الاخرى. وأخذوا وراثه الاسرار واللدنيات، من سر البابوية الاعظم. وأخذوا القاب الابدال والاقطاب والغوث والشيخ والمريد، من ألقاب البطارقة والكرادلة والشهداء والقدسين والدعاة. وأخذوا الزهد ونظامه وأربطته، من اوضاع الاديرة والرهبنات. وأخذوا الرسوم والخرفة والشعور، من ألبسة رجال الكهنوت الكاثوليكين. وأخذوا الاحتفالات والترنات وذكرها عند القبور، وشهد الرجال اليها، والاسراج عليها، والخضوع لديها، وتعليق الآمال بسكانها، من مراسم الكنيسة وتقاليدها ونظمها وزينتها، وأخذوا التبرك بالآثار: كالقدح والحريرة والدستار، من نظام الذخيرة وقديسية العكاز. وأخذوا إمرار اليد على الصدر عند ذكر الصالحين، من إمرارها على الصدر لاشارة الصليب. وكذلك أخذوا الحقيقة من السر. واتزعوا وحدة الوجود من الحلول. والمولد من الميلاد. ورفع الاعلام من حمل الصليان. ووضع الاغلال من براهمة المنود (١)

(١) الادلة على هذا كثيرة والمراجع عديدة وأشملها لهذه النقطة كتاب «أم القرى»

أرأيت إذاً ممن أخذ القوم طريقهم؟ وكيف وضعوا لها على حساب الدين القواعد والاضاع؟ وأخيراً فأنى أودأن أنتهي بك إلى نتيجة شرعية، فالإكلام في هذا البحث طويل وهو كلما طلته طال. وبحسبي هذا القدر، لأقدم اليك أدلة شرعية ناهضة تقوم في وجوه المخالفين. وهأنذا بدأها بقصيدة قالها الشيخ المقرئ (المتوفى عام ٨٣٧ هـ ١٤٣٣ م) ثم نعقب بفتاوى أربع تذهب الشك باليقين. قال الشيخ المقرئ (١):

برغم سنة خير العجم والعرب	أضحت مساجدنا للهو واللعب
ما كان صلى عليه الله يأمرنا	بضرب دف ولا زمر ولا قصب
بل سد عن زمر الراعى مسامعه	صونا لها ولنا من هذه اللعب
فضحتمونا وصيرتم مساجدنا	وهى المصونة كالحانات للعب
شوشتم الدين غيرتم عاسنه	فعلتمو فيه فعل النار في الخطب
صيرتمو دينه هزوا ومضحكة	لكل ذى ملة من قوم كل نبي
هيهات والله ما في دينه عوج	ولا بملته نقد محتسب
ولا دعانا إلي شيء نعب به	ولا إلى فعلة ترى بذى حسب
سألتكم بالذي لا تكفرون به	والطائفين ببيت الله ذى الحجب
هل استدار حوالى أحمد خلق	فما مضى من ذوى الاسلام والصجب
وقام فيهم مغنيهم كملكو	للضرب بالدف والترمير بالقصب

والآن فالأقدم اليك مايقوله أئمة المذاهب الاربعة في هؤلاء :

استفتى بعضهم في سنة ٦٦١ هـ علماء المذاهب الاربعة الاستفتاء الآتي (ماقول السادة الفقهاء أئمة الدين وفقهاء المسلمين - وفقهم الله لطاعته وأعانهم على مرضاته - في جماعة من المسلمين ، وردوا الى المسجد وشرعوا بصفقون و يشطحون ، فهل يجوز فعل ذلك شرعاً ؟ أفوتونا مأجورين برحمتك الله) فقال الشافعية : « السماع هو مكروه يشبهه الباطل ، من قال به ترد شهادته والله أعلم » وقال المالكية : « يجب على الحاكم زجرهم وردعهم وإخراجهم من المساجد حتى يتوبوا ويرجعوا والله أعلم » وقال الحنابلة : « فاعل ذلك لا يصلى خلقه ، ولا تقبل شهادته ، ولا يقبل حكمه إن كان حاكماً وإن عقد للنكاح عقدا فهو فاسد ، والله أعلم » وقال الحنفية : « لا يصلى على الحصر التى يرقص عليها حتى تغسل والله أعلم »

(١) راجع كتاب « سر تأخر المصريين »